المدخل

- 1 -

إنَّ دراسة النص الأدبى لا تقف عند جانب أحادى التناول؛ أى بالاعتماد على النص وحده منفردًا، إنَّ ذلك يُعَدُّ بترًا واضحًا لعلائق النص، تلك العلائق التى تُشكِّل نسجه، وبالتالى تُشكِّل دلالاته المقصودة عند الشاعر، فالكلمة - كما يقول دى سوسير – لا تقف وحدها، حيث لا وجود مطلقًا لكيانها منفردة وحيدة، فهى ليست إلَّا كيانًا متواصلاً مع كيانات آخرى، والأديب (المبدع) لا يقف وحده – إذن – لأنه تواصل ابداعى متعدِّد لا تسير خُطاه إلَّا منطلقة من خطًى أخرى، وقد يقع حافره على حافر غيره تمامًا؛ كما يقول ابن الأثير.

إنَّ هذه الخُطى لا تقف وحدها، فهى مسافات تواصلية قد سبقت بخطوات أخرى من ذى قبل.

- 2 -

والناظر – بإمعان – إلى أمشاج النص الأدبى يعرف أن هذه الأمشاج ليست إلَّا جوانب «سيميولوجية» لفحص النص نفسه، فهى علامات دالة على علاقات متشعبة لنصوصٍ أخرى، بل ولأجناسٍ أخرى متعددة. ومن هنا اتجهت الدراسات النقدية الحديثة إلى اختراق ميادين علمية متعددة لتسحب مصطلحاتها، بل ومناهجها، وكذلك ميادينها إلى ميادين ومساحات الدراسة الأدبية، وتدخل الجيولوجيا – بقوة – إلى تلك الساحة الأدبية مصطحبة معها مصطلحات ومناهج جديدة، فكان الحديث عن جيولوجيا النص الذى سحبه (بارت) من مجاله إلى المجال التشريحى للنص الأدبى، من حيث درس مكونات النص وطبقاته المختلفة المتعددة.

فذهب الدرس النقدى يعتمد على خطوات جيولوجية لفهم النص وتحليله، كما يفعل ذلك عالم الجيولوجيا فى فحص ودراسة العينة الأرضية.

وبذلك يظهر مصطلح «العينة» فارضًا نفسه بكل قوة على الساحة الأدبية ذاتها، فكانت (جوليا كرستينا) أول من لمحه، وجاء به إلى الدرس النقدى.

امتدت الأيدى لتأخذ مصطلحات جيولوجية أخرى؛ فكان تعبير «الرسوبيات» النصية الذى تحمس له (جاك دريدا) كثيرًا.

- 3 -

وعند دراستنا للنص الأدبى – تحليلاً – فليس أمامنا من بُدّ فى أن نستخدم هذه التقنية المائزة، تلك التقنية التى تستمد كيانها من ميادين العلوم الحديثة، حيث تنطلق الخطوات التحليلية عامدة إلى كشف ذرَّات النص البعيدة الصفر، وربطها بكياناتٍ أخرى ليعمِّق وجودها، ويعلم جذورها، وتأخذ هذه العملية «الدينامية» مصطلح التناص؛ الذى يحمل معانى التقاطعات النصوصية الأخرى، حيث تولِّد هذه التقاطعات عناصر متراكبة من معادن شتَّى، وعندما سحب الدرس الجيولوجى على النص الأدبى فإنه يجب – حينئذٍ – أن يسحب بكل أبعاده وعلومه وديناميته.. فعندما سحب (بارت ودريدا) هذا المصطلح «الجيولوجى» إلى تشريحية النص فإن ذلك يعنى دمج علوم دراسة القشرة الأرضية بعلوم التراكيب الجيولوجية ليمتد ميدان الدراسة فيها. وليس قول (جاك دريدا) عن رسوبيات النص إلَّا دليلاً قاطعًا على وجوب درس علوم «الجيولوجيا» بكل ميادينها، وسحب هذه العلوم على الدرس النَّصى.

وكلمة «**جيولوجيا**» نفسها **تعنى: علم الأرض**؛ حيث تتكون من مقطعين «جيو» المشتق من «جيا **gea**»؛ وتعنى: الأرض... و«لوجيا» من كلمة «لوغوس **logos**»؛ ومعناها: علم أو منطق... فالجيولوجيا تعنى: علم الأرض[1]. وبالطبع فإن لكل علم منهجه المنضبط، وكذلك مواده العلمية، وبالربط بين «الجيولوجيا» بهذا المفهوم وبين ما عُرف بـ«جيولوجيا النص»، فإن الدرس التشريحى سيأخذ مجالات جديدة متسعة، ولكن العلوم «الجيولوجية» تكثُر، بل

(1) محمد حسين حسين؛ أساسيات علم الجيولوجيا، مركز الكتب الأردنى، 1990م، ص12.

وتتشعَّب تشعبًا دقيقًا؛ فهناك علم «البللورات **crystallogy**»؛ والذى يدرس ترتيب الذرات فى المواد الصلبة[1]. وهذا الأمر يُشبه درس النظام أو النظم الذى يُشير إليه (عبد القاهر الجرجانى)؛ حيث العناية بالسياق والتركيب والتتابع. فالمواد المدروسة فى هذا العلم هى النصوص «بالنسبة للدرس الأدبى» وموادها من حيث الإبداع. **ويهتم علم «الصخور petrology» بدراسة الصخور التى تتكوَّن من معادن، ولهذا العلم جانبان؛ الأول:** وصفى؛ ويهتم بمعرفة الصخور وتصنيفها، **والثانى:** تفسيرى: ويهتم بنشأة الصخور.

وهذا التقسيم الثنائى يتقابل تمامًا مع درس اللغة أو علم اللغة من حيث العناية بدراسة اللغة بشكلها الوصفى أولاً، ثم دراستها درسًا تفسيريًّا، حيث الدرس الأدبى لتكوين اللغة، ولذلك انطلق (موكاروفسكى) معتنيًا بدراسة اللغة من الجانبين: المعيارى والإبداعى.

وهذا الميدان من أهم ميادين الدرس التناصى؛ فالتناص رؤية عملية لطبيعة تكوَّن الأنساق وإبداعاتها.

وتمتد ميادين ومساحات الجيولوجيا مع مساحات الدرس الفيزيائى؛ وهذا ما حدا بكثيرٍ من النقاد المحدثين إلى الذهاب إلى علم الفيزياء ليأخذ منه القوانين والمصطلحات، ليشكِّل بها نظريات خاصة للدرس التحليلى الأدبى، وهذا ما يبدو واضحًا وملحًّا عند (كريماس) على – سبيل المثال –، فوجدنا مصطلحات التشاكل، والامتداد، والتكرار... وغيرها من المصطلحات الدالة على الحركة والمادة، وهما غاية الدرس الفيزيائى «فالفيزياء هى دراسة المادة والحركة... كما تُشير إحدى تعريفاتها كذلك»[2]. ولكن الفيزياء رغم هذا التعريف المكثف مزيج من: الجهد الخلَّاق، والمعرفة المتراكمة، والأفكار الموحَّدة، والمعادلات الرياضية، والأثر الفلسفى، والتطبيق العملى[3]. وهذا أمر ينطبق على طبيعة الجهد المبذول فى تحليل النص

(1) المرجع السابق؛ ص12.
(2) كيثب وفورد؛ الفيزياء الكلاسيكية والحديثة، ترجمة: همام غصيب وعين شاهين، الأردن، 1981م، ص12.
(3) نفسه؛ ص3.

الأدبى، حيث الانطلاق من «دينامية» خاصة تؤدى إلى درس النص بجوانب تحليلية قائمة على أُسس علمية.

فدرس التناص يلتقى مع هذا الجهد الخلَّاق التقاءً واضحًا، فدرس النص حسب ما وُجِدَ من جهود علمائه درس دقيق المسلك ينطلق من طبيعة تركيب البنية النصية، مستفيدًا ومعتمدًا على جيولوجية التركيب وفيزيائية الحركة.

وبحثنا هذا محاولة متواضعة لدرس تناصى «جيولوجى» بين (أحمد شوقى) فى قصيدته «مصاير الأيام» وبين (بدر شاكر السياب) فى قصيدة «الأسلحة والأطفال». وقد جاء هذا البحث وفقًا للانطلاق التناصى فى محورين؛ الأول: محور نظرى تأصيلى، والثانى: محور تطبيقى عملى، ثم بعد ذلك المحصلات.